



عودة
إلى الله

اصطدام بعد صلاة الفجر

يحي لنا القصة الواقعية الداعية عبدالحميد البلابي فيقول: في فجر يوم من أيام الصيف، وقيل خروجنا باصطدام سيارة قرب المسجد، هرعنا حيث الصوت، فرأى احدا شابا يجري من بعيد هاربا من السيارة، ويدخل بين البيوت حتى توارى عن الأنظار. ذهبنا الى السيارة فوجدناها قد اصطدمت بسيارة متوقفة على الرصيف، والمفاجأة اننا وجدنا شابا ممثلا قد سقط خلف القاعد الامامية عند مكان الأرجل دون حراك.

سارعنا بالاتصال بالنجدة، وبعد فترة قليلة جاءت النجدة ومعها سيارة الإسعاف، فقاموا بالكشف على الشاب الملقى خلف المقاعد فوجدوه قد فارق الحياة منذ ما يقرب الساعتين، ولم تعرف سر هذا اللغز: وبعد نقل الجثة الى الفحص الجنائي تبين انه قد توفي بجرعة زائدة، وبالتحري عرفوا شخصية قائد السيارة الفار .

أخبروني باسم الشاب المتوفي، واسم الشاب الذي كان يقود السيارة، وعرفت أن قائد السيارة هو ابن احد الآباء الذين نتعامل مع ابنه الأكبر منذ فترة، وهو من خيرة الشباب الثائين. وكان يخبرنا بأن له اثنين من أخوانه قد سلكا طريق المخدرات، وبسبب هذه العلاقة اتصل والده بي يستشيرني بامر ولده الفار، فنصحتنه بأن يسلم نفسه للمخفر، لأنه مطلوب، وسيقبضون عليه عاجلا ام آجلا. والأولى له ان يسلم نفسه، وإذا لم يكن مشركا في جريمة القتل فسوف يطلق سراحه، وبالفعل اخذ نفسه للصحة واقنع ولده بذلك وسلم نفسه للمخفر.

اعتراف:

في المخفر وأمام المحقق تبينت خيوط اللغز: لقد كانوا في تلك الليلة سويًا يتعاطون الهيروين وقد غرس الشاب المتوفي ابرة الهيروين في يده، وما لبث أن سقط بينهم مفارقا الحياة.

دب الذعر بينهم، ماذا عسائهم يفعلون، او يتصرفون افتقوا ان ياخذوه ذلك الشاب في سيارته، ويلقيه في اي مكان بعيد عن مسرح الجريمة، ولكنه وبسبب الارتباك اصطدم بتلك السيارة المتوقفة عند احد البيوت، مما كشف الأمر، وبعد تكشف هذه الحقيقة اطلق سراحه بكفالة.. هكذا هي حال المذنبين لا اخوة بينهم، وإذا ما مات احدهم بلقونه في حاويات الرزالة، او خلف محولات الكهرباء، او سع بقايا البناء، وفي أحسن الحالات يلقون بجثته على أرفصة المستشفيات، ثم يلودون بالفرار، صدائهم وأخوتهم بهذا المختر، فإذا ما غاب انقطعت كل صلة.

نفا في العشر الأوائل:

أحد أنشطة جمعية بشائر الخير الرئيسية، هو استغلال الاعتكاف الرمضاني في العشر الاواخر من رمضان، وعادة ننتقي النوبيات المتميزة لمشاركتنا، ولكن لا يمعن ان يمتكف معنا احبانا بعض التائبين ممن لم يتم اختيارهم، رغبة في الاستفادة، واحيانا يجلب بعض الاهالي ابناءهم ليلتحقوا بنا بعد استشارتنا.

وفي أحد الراضانات التقيت في العشر الاواخر بشاب صغير اكتشفنا ان اياه قد اتى به ابينا، ليكون برنامج الاعتكاف معينا له على الإقلاع. جلست معه، وبدانا نتجادب أطراف الحديث، فاكتشفت انه هو الذي اصطدم بالسيارة المتوقفة.

وكانت مفاجأة لي، فسألته التفاصيل، فاكد لي ما ذهبنا إليه، وزاد انه قبل الاصطدام كان في حالة ادمان شديدة، وكان مرتبكا وخائفا، مما جعله لا يتبين الطريق، الأمر الذي سبب له اصابته.

ضحية الوالدين:

تبين لي بعد الحديث معه انه احد ضحايا الأهمال التربوي للوالدين، وبالأسخى الوالد، فقد كان أبوه مدمنا على الخمر، وكان مهملا البيت اهمالا كاملا وزيادة على ذلك، كان اذا جاء باللبل يضرب أهم امامهم بالسوط، وكانوا يعينون صرخات الأب المخمور وصرخات استغاثة الأم المسكينة تحست مخالب ذلك الوحش الكاسر، مما جعلهم بهزيون من هذا الواقع ليستنشقوا الهواء النقي البعيد عن ذلك الاضطراب، مما أو قعهم بين مخالب رفة سوء هو واخوه الأكبر ابتداء من التدين وانتهاء باير الهيروين.

الزاهد العابد الفضيل بن عياض

والرضا وهما الغنى الحقيقي، فليس الغنى في كثرة المال والعيال، انما الغنى غنى النفس بالقناعة والرضا في الدنيا، حتى نفوز في الآخرة، ثم توجه إلى الله داعيا: اللهم زهدنا في الدنيا، فإنه صلاح قلوبنا وأعمالنا وجميع طلباتنا ونجاح حاجتنا. وحج هارون الرشيد ذات مرة، فمسأل أحد اصحابه أن يدلّه على رجل يسأله، فدله على الفضيل، فذهبا إليه، فقابلهما الفضيل وقال للرشيد: ان عمر بن عبدالعزيز لما ولي الخلافة دعا أناسا من الصالحين فقال لهم: إنني قد ابتليت بهذا البلاء (يعني الحكم) فاشيروا علي، فعد عمر الخلافة بلاء، وعدتتا أنت وأصحابك نعمة، فبكي الرشيد، فقال له صاحب الرشيد: ارفق بأمير المؤمنين، فقال الفضيل: تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا؟ (يقصد أن عدم نصحه قتلته) فقال له الرشيد: زدني يرحمك الله.

فاخذ يعظه وينصحه، ثم قال له: يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعبتك، فإن النبي ﷺ قال: «ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله عليه الجنة» (متفق عليه)، فبكي هارون وقال له: اعليك دين افضيه عندك؟ فقال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، والويل لي ان ناقشني، فالويل لي ان لم ألهم حاجتي، قال: إنما أعني من دين العباد.

قال: ان ربي لم يامرني بهذا، امرني أن اصدق وعده وأطيع أمره، فقال الرشيد: هذه ألف دينار خذها فانفقها على عيالك وتقو بها على عبادة ربك، فقال الفضيل: سبحان الله، أنا اذلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا، سلمك الله ووفقك، ثم صمت فلم يكلمنا، فخرج الرشيد وجعلوا، وكان الفضيل شديد التواضع، يشعر دائما بأنه مقصر في حق الله، رغم كثرة صلواته وعبادته.

وتنصي الأيام، ويتقدم السن بالفضيل بن عياض وذات مرة كان بعض الناس جلوسا عنده، فقالوا له: كم سنك؟ فقال: بلغت الثمانين أوجزتها فمأذأ أول من أنتظر علنتي السنون فإيلبنتني فدق العظام وكل البصر ومرض الفضيل، فسمع يقول: ارحمني بحبي إياك، فليس شيء أحب إلي منك، وإقام الزاهد العابد الفضيل بن عياض بمكة حتى توفي عام 187هـ وأطلق عليه هناك «شيخ الحرم المكي».



الخشية من الله والبكاء يلازمه، لا يرى إلا وعيناه تفيضان من الدمع، كلما ذكر اسم الله تعالى عنده ظهر عليه الخوف والوجل، وارتعشت كل أعضاء جسده، ترى من يكون هذا الرجل الذي غمر الإيمان قلبه؟ كان عاصيا قتاب الله عليه، وجعله من عباده المؤمنين، تحول من قاطع طريق يروع الأمنين إلى عابد زاهد، وكان سبب توبته، أنه كان يتسلق جدران أحد المنازل بالليل، فسمع صوتا يتلو قوله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق - الحديد: 16) فلما سمعها قال: بلي يا رب، قد آن، فرجع فمر على أرض خربة، فوجد بها قوما، فقال بعضهم: نرحل، وقال بعضهم: ننظر حتى نصعب، فإن الفضيل يقطع علينا الطريق، قال (أي: الفضيل): ففكرت وقلت: أنا أسعى بالليل في المعاصي وقوم من المسلمين هاهنا يخافونني وما أرى الله ساقني إليهم إلا لأرتدع (أي إن الله قدر لي أن آتي إلى هذا المكان لأتوب وأرجع إليه) اللهم إنني قد تبت إليك، وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

لقد جعل مظاهر توبته مجاورته لبيت الله حيث الرحمة والبركة، يدعو الله ويستغفره، ويندم على ما فرط في حقه. في أرض خراسان ولد الفضيل بن عياض ثم رحل إلى الكوفة في العراق، فسمع الأحاديث النبوية الشريفة والفقه من العلماء، أمثال الأعمش ويحيى بن سعيد الأنصاري وجعفر الصادق، فأثرت تأثيرا كبيرا في شخصيته، حتى أصبح من الزهاد الذين يرون أن الدنيا لا تساوي عند الله جناح بعوضة، ولا تستحق أن يتكالب الناس عليها، ويتصارعون من أجلها، فهي فانية زائلة، بل الأولى أن يعمل الناس لأخراهم، فهي الباقية الدائمة بفعل الخير، وتجنب المعاصي، ثم انتقل إلى مكة وأقام بها حتى توفي.

وكان إذا خرج في جنازة مع الناس، يعظمهم ويذكرهم بالآخرة، حتى إذا وصل إلى المقبرة، جلس في حزن شديد، وظل يبكي ولا ينقطع بكاءه، سألته الخليفة هارون الرشيد ما صفات المؤمن أيها الزاهد؟ فقال له الفضيل: صفات المؤمن، صبر كثير، ونعيم طويل، وعجلة قليلة، وندامة طويلة.

ومر الفضيل بن عياض على جماعة أغنياء، فوجدهم يلعبون ويشربون ويلهون، فقال لهم بصوت عال: ان مفتاح الخير كله هو الزهد في الدنيا، وقد سألته أحدهم: وما الزهد في الدنيا؟ فقال: القناعة

السامري والعجل

فاعلمتني بما فعلوا، فقال: تركتهم وجئتني وأنت قد استخلفتني فيهم. وقد كان هارون ﷺ نهاهم عن هذا الصنيع الفظيع أشد النهي، وزجرهم عنه أتم الزجر، ثم أقبل موسى على السامري وقال له: ما حملك على ما صنعت؟ قال: رأيت جبريل وهو راكب فرسا فقبضت قبضة من أثر فرس جبريل. وقد ذكر بعضهم أنه كلما وطئت الفرس بحوافرها على موضع أخضر وأعشب، فاخذ من أثر حافرها، فلما القاه في هذا العجل المصنوع من الذهب كان من أمره ما كان، فعمد موسى ﷺ إلى هذا العجل. فحرقه بالنار ثم ذراه في البحر، وأمر بني إسرائيل فشربوا، فمن كان من عابديه قلق على شفاهم من ذلك الرماد ما يدل عليه، وقيل بل اصفرت ألوانهم، ثم قال تعالى إخبارا عن موسى أنه قال لهم (إنما) الهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما، ثم أخبر تعالى عن حلمه ورحمته بخلقه وإحسانه على عبديه في قبوله توبة من تاب إليه، بتوبته عليه، فقال (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم). لكن لم يقبل الله توبة عابدي العجل إلا بالقتل، كما قال تعالى (وإذا قال موسى لقومه يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)، فبقال إنهم أصبحوا يوما وقد أخذ من لم يعبد العجل السيوفا إلى أيديهم، والقسى الله عليهم ضبابا حتى لا يعرف القريب قريبه ولا النسب نسبهم، ثم مالوا إلى عابديه فقتلوهم وحصدومهم. فقال: إنهم قتلوا في صبيحة واحدة سبعين ألفا واختار موسى من قومه بعد ذلك سبعين من علماء بني إسرائيل، ذهبوا مع موسى ﷺ ليعتذروا إلى الله عز وجل عن بني إسرائيل في عبادة من عبد منهم العجل.

وكانوا قد أمروا أن يتطيبوا ويتطهروا ويغتسلوا، فلما ذهبوا معه وأقربوا من الجبل وعليه الغمام وعمود النور ساطع صعد موسى الجبل ودنا موسى فدخل في الغمام، وقال للقوم: ادنوا، وكان موسى إذا كلمه الله، وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه، ودنا القوم حتى إذا دخلوا في الغمام وقعوا سجدوا، فسعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه: افعل ولا تفعل، فلما فرغ الله من أمره واكتشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا (يا موسى لنؤمن لك حتى نرى الله جهرة)، فاخذتهم الرجفة، وهي الصاعقة، فماتوا جميعا، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه، ويرغب إليه ويقول: ربنا لا تؤاخذنا بما فعلنا فإن كانت أوامرها ونواهيها سهلة قبلناها، فقال: بل قبلوها بما فيها، فراجعوه مرارا، فأمر الله الملأنة الذين عبدوا العجل منا، فإننا نراء من كانه ظلة، أي غمامة، على رؤوسهم. وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل يشق وجوههم، فصارت سنة لليهود أن يقرأ عليه التوراة إلا امتن ونقض لها رأسه، ثم عن العجل، فلما نشرها أي التوراة لم يبق على وجه الأرض جبل ولا شجر ولا حجر إلا امتن، فليس على وجه الأرض يهودي صغير ولا كبير لم يتقبلوها بما فيها سقط هذا الجبل عليكم فقبلوا ذلك، وأمروا بالسجود فسجدوا فجعلوا ينظرون إلى الجبل يشق وجوههم، فصارت سنة لليهود أن يقرأ عليه التوراة إلا امتن ونقض لها رأسه، ثم بعد مشاهدة هذا الميثاق العظيم والأمم الجسيم كانوا عهودهم ومواثيقهم، فلولا فضل الله عليهم، بان تداركهم بإرسال الرسل، وإنزال الكتب عليكم لكانوا من الخاسرين.

ذنوب كبيرة

الجذل والمرء واللدن

وتقريرها، قال: وأما الخصومة فلجاج في الكلام ليستوفي به مقصودا من مال أو غيره، وتارة يكون ابتداء، وتارة يكون اعتراضا، والمرء لا يكون اعتراضا. هذا كلام الغزالي.

وقال النووي رحمه الله: اعلم ان الجدل قد يكون بحق، وقد يكون بباطل، قال الله تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتي هي احسن)، وقال تعالى (وجادلهم بالتي هي احسن)، وقال تعالى (ما يجادل في آيات الله الا الذين كفروا)، قال: «فإن كان الجدل للوقوف على الحق وتقريره كان محمودا، وإن كان في مدافعة الحق، أو

قال الله تعالى (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد).

ومما يذم من الألفاظ: المرء والجدال والخصومة.

قال الامام حجة الاسلام الغزالي رحمه الله: المرء طنك في كلام لاظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله واظهار مزيتك عليه، وقال: وأما الجدل فعبارة عن امر يتعلق باظهار المذاهب

كان جدالا بغير علم كان مذموما، وعلى هذا التفصيل تنزل النصوص الواردة في اباحته وذمه، والمجادلة والجدال بمعنى واحد، قال بعضهم: ما رأيت شيئا أذهب للدين ولا أنقص للبروة ولا أشغل للقلب من الخصومة. فإن قلت: لايد للانسان من الخصومة لاستيفاء حقوقه، فالجواب: ما اجاب به الغزالي رحمه الله: اعلم ان الذم المتأكد انما هو لمن خاصم بالباطل وبغير علم كوكيل القاضي فإنه يتوكل في الخصومة قبل ان يعرف الحق في اي جانب فيخاصم بغير علم.



غزوات الرسول

غزوة الخندق (الأحزاب)

غزوة الخندق (الأحزاب)
كانت في حفر الخندق معجزات فيها من الله تأييد وعبرة في تصديق رسوله وتحقيق نبوته، عاين ذلك المسلمون جميعا وهذه المعجزات دليل قاطع على نبوته ﷺ ومنها:
كان ﷺ يبشّر المسلمين ويخبتهم ويقول لهم: «أبشروا بعون الله ونصره، إنني لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق، وأخذ المفتاح، وليهلكن كسرى وقيصر، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده، وإذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، والذي نفسي بيده لتنفق كنوزها في سبيل الله».

واشددت على الصحابة في حفر الخندق كذباً - أي قطع صلبة - فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ فأخذ المعول وضرب، فصار كثيباً أميل أو أميم - أي رملاً مفتتاً ناعماً - ومما وقع من المعجزات أثناء حفر الخندق أن ابنة لبشير بن سعد جاءت لأبيها وخالتها عبد الله بن رواحة بشفة من التمر ليتغذي بها فقال رسول الله ﷺ «لا هاتيه، فصبه في كفي رسول الله ﷺ فما ملاءم، ثم أمر بشوب فجعلوا يأكلون منه، وجعل يزيد حتى صدر أهل الخندق عنه، وأنه ليسقط من أطراف الغوب، ولقد أصاب أهل الخندق مجاعة، حتى قال بعض الصحابة: لبينا ثلاثة أيام لا نذوق زادا، فاستأذن جابر بن عبد الله ﷺ رسول الله ﷺ في الانصراف إلى بيته فآذن له.

قال جابر فجئت لامراتي وقلت لها إنني رأيت رسول الله ﷺ خصما شديدا - الجائع - أفعدك شيء؟ قالت: عندي صاع من شعير - وعناق - الصغيرة من أولاد المعز - فذبحت العناق وطحت الشعير وجعلت اللحم في برمة - أي القدر - فلما أسدنا جئت رسول الله ﷺ فساررتنه وقلت له: طمطم لي، فقم أنت يا رسول الله ورجل أو رجلان، فشبك ﷺ أصابعه في فمك، وقال: كم هو؟ فذكرت له، قال: كثير طيب لا تنزلن بموتكم، ولا تخزين عجبكم حتى اجبي، وصاح ﷺ «يا أهل الخندق إن جابر قد صنع لكم سوآلا - طعام فيه مرق كثير - فحيلها بكم.

وسار رسول الله ﷺ يقدم الناس، قال جابر: فقيست من الحياء ما لا يعلمه إلا الله، والله ناهيا لفضيحة، إننا لله وإنا إليه راجعون أقبل الناس مع رسول الله ﷺ وأمروهم بأن ادخلوا عشرة عشر، وجلس رسول الله ﷺ فقدم إليه الطعام كله، فسمى الله تعالى ثم أكل، وتوارد الناس، كلما فرغ قوم قاموا وذهبوا إلى الخندق، وجاء آخرون حتى جاء أهل الخندق كلهم وهم ألف، واقسم جابر: لقد أكلوا حتى تركوه وانصرفوا وان برمتنا لتغسط كما هي، وان عجيننا ليخبز كما هو.

• الشيخ سيد الرفاعي